(ISSN : 2536 - 9555)

# شَقيق البَلْخِي (ت 194هـ/ 810م) ومراحل الطريق الصوفي من "التوبة" إلى "منازل أهل الصدق"

د. أحمد حسن أنور حسن[1]

## أولا- حياته:

هو أبو على شقيق بن إبراهيم الأَزْدِىُّ من أَهل بَلْخ لذلك سُمِّىَ البلخى[2]. لا تذكر لنا المصادر التاريخية أي تاريخ لمولده. وبصفة عامة ليس لدينا عن حياته إلا معلومات ضئيلة للغاية.

اشتهر شقيق البلخي بإسناده للحديث[3]، كما أنه تتلمذ على يد أبى الهذيل العنبري (110–158هـ/728–775م) صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان (80–

---

[1] **د. أحمد حسن أنور حسن:** مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بالوادي الجديد جامعة أسيوط، ومدير تحرير سلسلة الفلسفة الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، باحث متخصص في التصوف الإسلامي، من أبرز مؤلفاته

– كتاب: ***التجليات الروحية في الإسلام– نصوص صوفية عبر التاريخ***، (بالاشتراك مع المستشرق الإيطالي جوزيبي سكاتولين)، منشور في الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008م، ومكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب 2012م.

– كتاب: ***الأبعاد الصوفية عند عبد الملك الخركوشي "دراسة ونصوص"***، (بالاشتراك مع المستشرق الإيطالي جوزيبي سكاتولين) دار مصر المحروسة، القاهرة، 2009م.

– كتاب: ***مفهوم المحبة في التصوف الإسلامي من اللغة إلى التجربة***، (بالاشتراك مع المستشرق الإيطالي جوزيبي سكاتولين)، المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية، روما، إيطاليا، 2009م.

– كتاب: ***نشأة وتطور المقامات والأحوال الصوفية حتى نهاية القرن الخامس الهجري***، (بالاشتراك مع المستشرق الإيطالي جوزيبي سكاتولين)، تحت النشر.

**للتواصل اليكترونيًا مع الباحث البريد الإليكتروني:**

ahmed5658103@yahoo.com

[2] عبد الرحمن السلمي، **طبقات الصوفية**، ص61.

150هـ /699–767م) رضي الله عنهما[4]. وصحب الزاهد المشهور: إبراهيم بن أدهم (ت:161هـ/778م). ويذكر أن شقيقًا البلخي وإبراهيم بن أدهم قد ذهبا إلى مكة للحج[5]. وتشير العديد من المصادر التاريخية أن خروج شقيق البلخي للحج جاء فى عام 149هـ/766م وذلك لقوله: خرجت حاجا سنة تسع وأربعين ومائة[6]. وفيما يبدو أنه قد سافر إلى الشام أيضا[7]. كما يذكر أنه صحب القاضي أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت:183هـ/800م)، وأنه كان يحضر مجلس الإمام أبى حنيفة النعمان[8]. وقد روى أيضا العديد من الأقوال عن الزاهد المشهور عبد الله بن المبارك (ت:181هـ/798م)[9]. ويعتبر حاتم الأصم (ت:237هـ/851–852م) هو أشهر تلاميذ شقيق البلخي على الإطلاق.

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مكان وزمان وفاة شقيق البلخي. فقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة أن وفاته كانت سنة (154هـ/771م)[10]، وذكر أن الذهبي يذكر وفاته سنة (194هـ/810م) [11]. وقد جاء فى الرسالة القشيرية أنه كان ببلخ

---

[3] راجع: أحمد كفتارو، **الصوفيون أرباب أحوال**، ص24.. راجع أيضا: الذهبي، **ميزان الاعتدال**، 279/2... راجع أيضا: عبد الرحمن السلمي، **طبقات الصوفية**، ص61–63.

[4] عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس، ص138.

5 ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، جـ6، ص299. وانظر أيضا: ابن أبى الفت الإربلي، **كشف الغمة**، جـ3، ص3. وانظر أيضا: الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل**، جـ3، ص455.

[6] محمد طاهر القمى، **كتاب الأربعين**، ص382. وانظر أيضا: حيدر الشرواي، **مناقب أهل البيت**، ص275.

[7] الذهبي، **تاريخ الإسلام**، 47/10. وانظر أيضا: على بن الصباغ، **الفصول المهمة فى معرفة الأئمة**، جـ2، ص939.

[8] عبد الرحمن الجامي، **نفحات الأنس**، ص140.

[9] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 398/8.

[10] ابن تغرى بردي، **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر**، جـ2، ص21.

[11] المرجع السابق، جـ2، ص146.

(ISSN : 2536 - 9555)

عندما كان على بن عيسى بن ماهان أمير بلخ[12]، وكان ابن ماهان أميرًا فى أيام هارون الرشيد الذى تولى الخلافة سنة (170هـ/787م) وهذا يعني أن وفاته لم تكن فى عام (154هـ/771م). أما الذهبي فيذكر أن شقيقًا: استشهد فى غزوة كولان سنة أربع وتسعين ومائة[13]. ويذهب كلٌّ من: ابن الأثير[14]، والكتبي[15]، وخير الدين الزركلي[16] إلى نفس الرأي. كما تذكر بعض الدراسات أنه كان يقيم فى أحد الحصون (Ribat) في وشجايرد Washgird في إيران الشرقية، حيث كان من المتطوعين لمحاربة الوثنيين من الترك فى وسط أسيا. ونحن نرجح استشهاده فى معركة كولان (kulan) التي دارت ببلاد الأتراك فى أكسس (oxus) الجنوبية عام 194هـ[17]. وبالتالي فليس من المنطقي أبدًا أن تكون وفاته كما ذكر البعض عام (154هـ/771م)[18].

## ثانياً- شقيق البلخي بين الأسطورة والحقيقة:

تقدم لنا المصادر التاريخية صورة أسطورية لا تختلف كثيرًا عما قدمته لشخصية إبراهيم بن أدهم (ت 161هـ/ 778م) ورابعة العدوية (ت:185هـ/801م). فإذا كان إبراهيم بن أدهم قد تاب وترك الإمارة، فإن البلخي

---

[12] عبد الكريم القشيري، **الرسالة القشيرية**، ص86.

[13] الذهبي، **ميزان الاعتدال**، جـ2، ص279.

[14] ابن الأثير، **الكامل فى التاريخ**، جـ6، ص237.

[15] محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، جـ1، ص485.

[16] خير الدين الزركلي، **الأعلام**، جـ3، ص171.

[17] Radtke, B, ***Theologen und Mystiker in Hurasan und Transoxanien***, in: ZDMG, vol.136/1 (1986), p.540.

– Reinert, B, ***Die Lehre vom Tawakkul in der klassischen Sufik***, Berlin, 1968, p172–175.

[18] Knysh, ***Mysticism***, p. 32.

قد فعل نفس الشيء حينما ترك التجارة والجاه. وبالطبع ينبغي على المصادر التاريخية تقديم قصص ما لتفاصيل توبته وتركه للتجارة. وبالفعل نجد العديد من الروايات. **فالرواية الأولى:** ما ذكر عنه أنه كان له ثلاثمائة قرية، ثم مات بلا كفن، وكان من كبار المجاهدين[19]. **والرواية الثانية:** والأكثر شهرة: حديثه مع الخادم التركي (البوذي) الذي قال له: لا يوافق كلامك فعلك[20]. **والرواية الثالثة:** حينما رأى مملوكا يلعب فى زمان قحط، وكان الناس مهتمين به[21]. **والرواية الرابعة:** نجاته من الأمير علي بن عيسى بن ماهان[22].

---

[19] الذهبي، **ميزان الاعتدال**، 279/2. وانظر أيضا: **صفة الصفوة**، 139/4.

[20] يذكر أن شقيقًا البلخي كان من أبناء الأغنياء وخرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث فدخل إلى بيت أصنامهم، فرأى خادمًا للأصنام فيه، قد حلق رأسه ولحيته، ولبس ثيابًا أرجوانية، فقال شقيق للخادم: إن هذا الذي أنت فيه باطل، ولهذا الخلق خالق ليس كمثله شيء رازق كل شيء، فقال له الخادم: ليس يوافق قولك فعلك، فقال له شقيق: كيف؟ قال: زعمت أن لك خالقًا قادرًا على كل شيء فإن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك فلم تعنيت إلى هاهنا للتجارة؟! فانتبه شقيق وأخذ فى طريق الزهد.. راجع: القشيري، **الرسالة القشيرية**، ص85... راجع أيضا: الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص59.

[21] أنه رأى مملوكا يلعب ويمرح فى زمان قحط، وكان الناس مهتمين به، فقال شقيق: ما هذا النشاط الذى فيك؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب والقحط؟ فقال ذلك المملوك: وما على من ذلك، ولمولاى قرية خالصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه، فانتبه شقيق، وقال: إن كان لمولاه قرية، ومولاه مخلوق فقير، ثم إنه ليس يهتم لرزقه، فكيف ينبغى أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غنى؟! القشيري، **الرسالة القشيرية**، ص85-86.

[22] كان علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ، وكان يحب كلاب الصيد، ففقد كلبًا من كلابه، فسعى برجل أنه عنده، وكان الرجل فى جوار شقيق، فطلب الرجل، فهرب.. فدخل دار شقيق مستجيرًا، فمضى شقيق إلى الأمير، وقال خلوا سبيله، فإن الكلب عندي أرده إليكم إلى ثلاثة أيام. فخلوا سبيله، وانصرف شقيق مهتما لما صنع. فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائبا من بلخ فرجع إليها، فوجد فى الطريق كلبا عليه قلادة فأخذه، وقال: أهديه إلى

(ISSN : 2536 - 9555)

وبالطبع يمكن الشك بشكل كبير فى مصداقية هذه الروايات، فهل حدثت بالفعل أم لا؟! أم أنها أساطير تحمل دلالات رمزية لشخصية ارتبط اسمها بمفهوم التوكل عبر تاريخ التصوف الإسلامي؟!

فمن الملاحظ أن العبرة والعظة النهائية من كل هذه الروايات هي الإعلاء من شأن التوكل على الله فى كل شيء، ولذلك فمن الطبيعي أن ترتبط هذه الروايات بشخصية أكثرت (وربما بالغت) من الحديث عن التوكل.

وعلى آية حال تعتبر شخصية شقيق البلخى (ت:195هـ/810م) من الشخصيات المركزية فى حركة الزهد، فقد أخذت أفكاره مكانة مرموقة فى العديد من المصنفات الصوفية، ولعل الجدول التالي يعبر عن مدى تواجد أقواله فى المصنفات الصوفية عبر التاريخ.

**جدول (رقم:1)**

**إحصائية لأقوال شقيق البلخي فى المصنفات الصوفية**

| اسم الكتاب | عدد المرات التي ذكر فيها اسمه | عدد الأقوال المنسوبة له |
|---|---|---|
| كتاب التعرف | لم يذكره على الإطلاق | صفر |
| كتاب اللمع | لم يذكره على الإطلاق | صفر |
| كتاب قوت القلوب | 4 مرات | 2 عبارة |
| تهذيب الأسرار | 4 مرات | 4 أقوال |
| طبقات الصوفية | 27 مرة | 24 عبارة |
| الرسالة القشيرية | 11 مرة | 6 عبارات |
| إحياء علوم الدين | 6 مرات | 6 عبارات |

شقيق، فحمله إليه، فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير، فسر به، وحمله إلى الأمير وتخلص من الضمان، فرزقه الله الانتباه وتاب مما كان فيه، وسلك طريق الزهد. راجع: القشيري، **الرسالة القشيرية**، ص86-87.

**ويمكن تقديم بعض الملاحظات المترتبة على الجدول السابق:**

1. إن عدم وجود اسم شقيق البلخي على الإطلاق فى كتاب التعرف وكتاب اللمع يعد علامة استفهام لا نستطيع تقديم إجابه عليها. فكيف لم يعرفه الكلاباذي والطوسي؟! فى نفس الوقت الذي عرفه معاصرهما كأبو طالب المكي، وعبد الملك الخركوشي.

2. يجب الانتباه للملاحظة المهمة التى قدمها عبد الرحمن السلمي حينما قال عن شقيق البلخي: وأَظُنُّه أوَّلَ من تكلم في علوم الأحْوال، بِكُوَر خُراسانَ[23]. فلا ينبغي أن تمر هذه الملاحظة مرور الكرام.

3. إن المصادر الصوفية التي ذكرت شقيقًا البلخي فى القرن الرابع الهجري اكتفت بسرد القليل من عباراته المرتبط أغلبها بالتوكل، فى حين أنها لم تقدم ذكر لتفاصيل توبته.. حيث لم يظهر ذلك إلا مع أبى نعيم الأصفهاني (ت:430هـ) فى حلية الأولياء، وعبد الكريم القشيري (ت:465هـ) الذي أورد الروايات المختلفة لقصة توبة شقيق البلخي. وقد يعني ذلك أن هذه الروايات الأسطورية لم تكن قد اكتملت حتى عصر عبد الرحمن السلمي (ت:412هـ)، فقد قدم السلمي أربعًا وعشرين عبارة من أقوال شقيق البلخي، وفى الوقت نفسه قدم فى نفس الكتاب **(طبقات الصوفية)** تفاصيل توبة إبراهيم بن أدهم، إلا أنه لم يقدم ولو إشارة لرواية واحدة لتفاصيل توبة شقيق البلخي، مما يجعلنا نرجح أن أغلب هذه الروايات قد نشأت وأكتلمت حتى ظهرت فى صورتها النهائية فى القرن الخامس الهجري.

ولعل أكثر ما اشتهر به شقيق البلخى هو صياغته لمفهوم "**التوكل**"، مما جعل عبد الرحمن السلمى يصفه بقوله: حَسنُ الجرى على سبيل التوكل، وحَسَنُ الكلام فيه[24].

---

[23] السلمى، **طبقات الصوفية**، ص61.

(ISSN : 2536 - 9555)

وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن خبرته لم تكن محصورة فى التوكل فحسب، بل إنه أول من وضع مصطلح "**نور الحب الإلهي**"، وربما أول من تكلم فى "**المقامات والأحوال الصوفية**" بشكل مرتب ومنظم[25]. بالإضافة إلى أنه قد حدد ما أسماه هو بـ "**منازل أهل الصدق**"[26]. وربما يكون بذلك قد تجاوز معاصرته رابعة العدوية (ت:185هـ/801م) التي توفيت قبله بقليل. وإذا كان شقيق البلخي قد تكلم عن الزهد والتوكل والخوف.. فنعتقد أنه وضع قمة التجربة الصوفية فى الإخلاص والتوحيد والشوق والمحبة وسنحاول فى الصفحات القادمة الكشف عن ذلك[27].

## ثالثاً- مراحل الطريق الصوفي ومدى ترابطها عند شقيق البلخي:

يمكننا أن نرصد عند شقيق البلخي بعض المصطلحات المهمة التي ستشكل فيما بعد عصب المقامات والأحوال الصوفية، مثل: (التوبة، الصبر، الزهد، التوكل، المعرفة، التوحيد، الشوق، المحبة) ليس هذا فحسب بل يمكن أن نقدم مجموعة من الملاحظات المهمة حول المصطلحات التي يتحدث عنها. فأحيانا نجده يقوم بتقسيم المصطلح الواحد عدة أقسام كما فعل مثلا مع مصطلح (الصبر)، وأحيانا أخرى نجده يقوم بتقسيم المصطلح الواحد عدة أقسام وداخل كل

---

[24] السلمى، **طبقات الصوفية**، ص61.

[25] آنا ماري شيمل، **الأبعاد الصوفية**، ص47. وكذلك راجع بولس نويا:
Paul Nwyia, ***Trois oeuvres inedites de Mystiques musulmans, Saqiq al-Balhi, Ibn Ata, Niffari***, Dar EL-Machreq, Beyrouth, Liban, 1986, p.288.

[26] بولس نويا، **نصوص صوفية غير منشورة لشقيق البلخي**، ص17.
لم يكن شقيق البلخي أول من ذكر مصطلح نور الحب الإلهي فحسب، بل ربما يكون أول من ذكر مصطلح النور الإلهي. صحيح أنه ذكر مصطلح "**نور الحب الإلهي**"، لكن مرة واحدة فقط. أما مصطلح النور الإلهي، فقد ورد لديه أكثر من أربع مرات، ونعتقد أن مصطلح "**نور الحب الإلهي**" هو المرحلة المتطورة والنهائية لمصطلح "**النور الإلهي**".. راجع بولس نويا، **نصوص صوفية غير منشورة**، ص17-22.

[27] شيمل، **الأبعاد الصوفية**، ص47.

قسم عدة أنواع كما فعل مع مصطلح (المعرفة)، وأحيانا أخرى نجد ترابطًا وترتيبًا منظمًا لبعض هذه المصطلحات مثل ترتيبه المنظم لـ (التوحيد، الإخلاص، التوكل، الرضا) وأحيانا نجد بعض المصطلحات التي لا يدخلها ضمن ترتيب محدد. ولتوضيح ما ذكرناه فى السطور السابقة نتجه لرصد وتحليل رؤية شقيق البلخي لبعض المصطلحات المهمة التي يمكننا اعتبارها محطات أساسية فى رحلة المقامات والأحوال الصوفية.

**1- التوبة:**

يتفق أغلب زهاد القرنين الأول والثاني الهجريين على البدء بالتوبة. ويظهر ذلك بوضوح عند شقيق البلخي أيضا، ولعل الدليل على ذلك قوله: كنت رجلاً شاعرًا فرزقني الله عز وجل التوبة[28]. وهنا يتشابه موقف شقيق البلخي مع موقف معاصرته رابعة العدوية (ت:185هـ/801م) فى قولها: بل لو تاب عليك لتبت[29]. أي أن كليهما قد يعتبر التوبة (فى إحدى معانيها بحسب العبارات السابقة) منة وهبة من الله عز وجل. إلا أن الملفت للنظر هنا هو تلك العلاقة الجدلية الغريبة بين المنة الإلهية والجهد البشري. فإذا كانت بداية التوبة فى نظر شقيق البلخي منة وهبة إلهية، فإن استمرارها ودوامها لن يتم إلا بالمجهود البشري، فالعاقل كما قال: يكون خائفا لما سلف منه من الذنوب[30]. ولذلك حدد للتوبة شروطًا هي: تضرع دائم، وخوف من وعيده، حسن ظنه بالمسلمين، اشتغاله بعيبه لا بعيوب الناس واستصلاح ما أفسده من قبل[31]. وبالطبع يبدو من النص السابق أنه يغلب عليه الجانب الوعظي والإرشادي، ولا يعبر بطبيعة الحال عن التوبة بمعناها

---

[28] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص59.

[29] الخركوشى، **تهذيب الأسرار**، ص79. القشيري، **الرسالة**، ص286.

[30] عبد الرحمن السلمي، **طبقات الصوفية**، ص63.

[31] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص66.

(ISSN : 2536 - 9555)

الروحي أو الذوقي عند الصوفية إلى أن تأتي عبارته الشهيرة: تفسير التوبة أن ترى جُرْأَتَك على الله، وترى حِلَم الله عنك[32]. وربما أثرت هذه العبارة فى صياغة مفهوم التوبة عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين، ليس هذا فحسب بل ربما مرت هذه العبارة بمراحل متعددة حتى ظهرت فى أعلى صورها فى حكم ابن عطاء الله السكندري (ت:709هـ/1309م) خاصة حكمته القائلة: أنت إلى حِلْمِهِ إذا أَطَعْتَهُ أَحْوجُ مِنْكَ إلى حِلْمِهِ إذا عَصَيْتَهُ[33].

وبالعودة مرة أخرى إلى شقيق البلخي الذي نجده ينتقل من الحديث عن التوبة إلى الحديث عن الطاعة وربط ذلك ربطًا مباشرًا مع المحبة وذلك حين قال: جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم، وأهل المعاصي أمواتًا فى حياتهم[34].

ليس هذا فحسب بل نجده يقول: حسن الطاعة إلى أربعة أشياء: إذا وجد العبد نفسه فى طاعة فليقل لنفسه: هذه طيبة من الله وهو الذي منَّ بها علىَّ، وإذا علم ذلك كسر العجب، ويكون قلبه معلقا بالثواب، فإذا علق قلبه بالثواب كسر الرياء[35]. ولا يتسع المجال للدخول فى تفاصيل تقسيم كل مستوى من المستويات السابقة.

وقد يكون الجديد الذي نجده عند شقيق البلخي ولا نستطيع أن نلمسه عند غيره من الزهاد السابقين عليه، هو: وضعه بعض مراحل الطريق التالية والمترتبة على التوبة. ولعل ذلك يظهر بوضوح فى قوله: كنت رجلا شاعرًا فرزقني الله التوبة... فلبست الصوف عشرين سنة، وأنا لا أعلم حتى لقيت عبد العزيز بن رواد

---

[32] عبد الرحمن السلمي، **طبقات الصوفية**، ص65.

[33] راجع: ابن عطاء الله السكندري، **الحكم العطائية**، ص139.

[34] عبد الرحمن السلمي، **طبقات الصوفية**، ص66.

[35] المرجع السابق، ص66.

(ت:159هـ/776م)[36] فقال: يا شقيق ليس البيان فى لباس الصوف والشعر، البيان المعرفة أن تعرف الله عز وجل **(المعرفة)**، تعبده ولا تشرك به شيئًا **(التوحيد)**، ويكون جميع ما تعمله لله خالصا **(الإخلاص)** والرضا عن الله عز وجل **(الرضا)**، وتكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى أيدي المخلوقين **(التوكل)**[37]. وهكذا يقدم شقيق البلخي ترتيبا معينًا تكون بدايته محددة **(التوبة)** ثم **(المعرفة)** ثم **(التوحيد)** ثم **(الإخلاص)** ثم **(الرضا)** منتهيا بـ **(التوكل)**. وقد يعترض البعض قائلا: أن هذا الترتيب ليس ترتيب شقيق البلخي، ولكنه ترتيب عبد العزيز بن رواد (ت:159هـ/776م)، ولكننا سنرى بعد ذلك أن شقيق البلخي سيعتمد هذا الترتيب وبشكل مباشر فى أكثر من موضع مع تغير بسيط وهو تقديم **(التوكل)** على **(الرضا)** وسنرى ذلك فى الصفحات القادمة.

**2- الصبر وأنواع المجاهدات:**

يبدو أن الصبر عند شقيق البلخي من المحطات الأولى فى الطريق الصوفي، والغريب أن شقيقًا يقسم الصبر عدة أنواع، ليس هذا فحسب بل إن كل نوع من أنواع الصبر لديه يتطلب مجاهدات وأخلاقيات معينة. وأنواع الصبر عنده هي[38]:

- الصبر على الجوع، والصبر على العرى، بالسرور لا بالفتور، بالرضا لا بالجزع.
- الصبر على العرى بالفرح لا بالحزن.
- الصبر على طول الصيام بالتفضيل لا بالتعسف، كأنه طاعم ناعم.
- الصبر على الذل بطيب نفسه لا بالتكره.
- الصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط.

---

[36] انظر ترجمته: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 184/7.

[37] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص64-64.

[38] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص60.

(ISSN : 2536 - 9555)

وكما نرى فإن كل نوعٍ من أنواع الصبر تتطلب القيام بأخلاقيات ومجاهدات معينة، فالجوع يتطلب السرور، والبؤس يتطلب الرضا. ليس هذا فحسب بل يرى شقيق البلخي أن كل عبارة من العبارات السابقة تعتبر على حد قوله: بابًا من الأبواب التي تؤدي إلى طريق الزهاد[39].

**3- المعرفة "أنواعها وأدواتها":**

إذا كان شقيق قد قسم الصبر عدة أنواع، فإنه قد فعل نفس الشيء وربما بشكل أدق مع مصطلح المعرفة. فقد حدد للمعرفة أربعة أنواع، وجعل لبعض هذه الأنواع مجموعة من الدرجات. فأنواع المعرفة عنده هي[40]:

- **معرفة الله:** وتفسير معرفة الله أن تعرف بقلبك أنه لا يعطي غيره ولا مانع غيره.
- **ومعرفة النفس:** أن تعرف النفس أن نفسك لا تنفع ولا تضر.
- **ومعرفة أمر الله ونهيه:** أن تعلم أمر الله عليك وأن رزقك على الله.
- **ومعرفة عدو الله وعدو النفس:** أن تعلم أن لك عدوا لا يقبل منك شيئًا إلا بالمحاربة، والمحاربة فى القلب أن تكون محاربا مجاهدا متعبا للعدو.

ليس هذا فحسب بل ربما يكون لكل نوع من هذه الأنواع عدة أقسام، وداخل كل قسم مجموعة درجات، فمثلا: معرفة الله عز وجل يمكن أن تنقسم قسمين، القسم الأول له عدة درجات منها: معرفة الله بالقلب، معرفة الله باللسان، معرفة الله بسمعه، معرفة الله بجوارحه. أما القسم الثاني فيودي إلى ظهور مصطلح جديد وهو التوكل[41].

---

[39] المرجع السابق، جـ8، ص60.

[40] المرجع السابق، جـ8، ص60.

[41] المرجع السابق، جـ8، ص61.

إنها المرة الأولى التي نجد فيها لدى زهاد القرن الثاني الهجري تقسيمًا صريحًا مقصودًا لمصطلح من المصطلحات التي تدخل ضمن إطار رحلة المقامات والأحوال. ليس هذا فحسب، بل بعد تقسيم المصطلح نجد له عدة تفريعات، وأحيانا يكون لكل تفريعة تعريف، وهكذا!. فهل فعل شقيق البلخي ذلك وهو مدرك المعني؟ أم جاء بمحض الصدفة!؟ هذا ما سنحاول تبينه، انظر الشكل التالي:

**شكل رقم (1) يوضح أنواع المعرفة ودرجاتها عند شقيق البلخي**

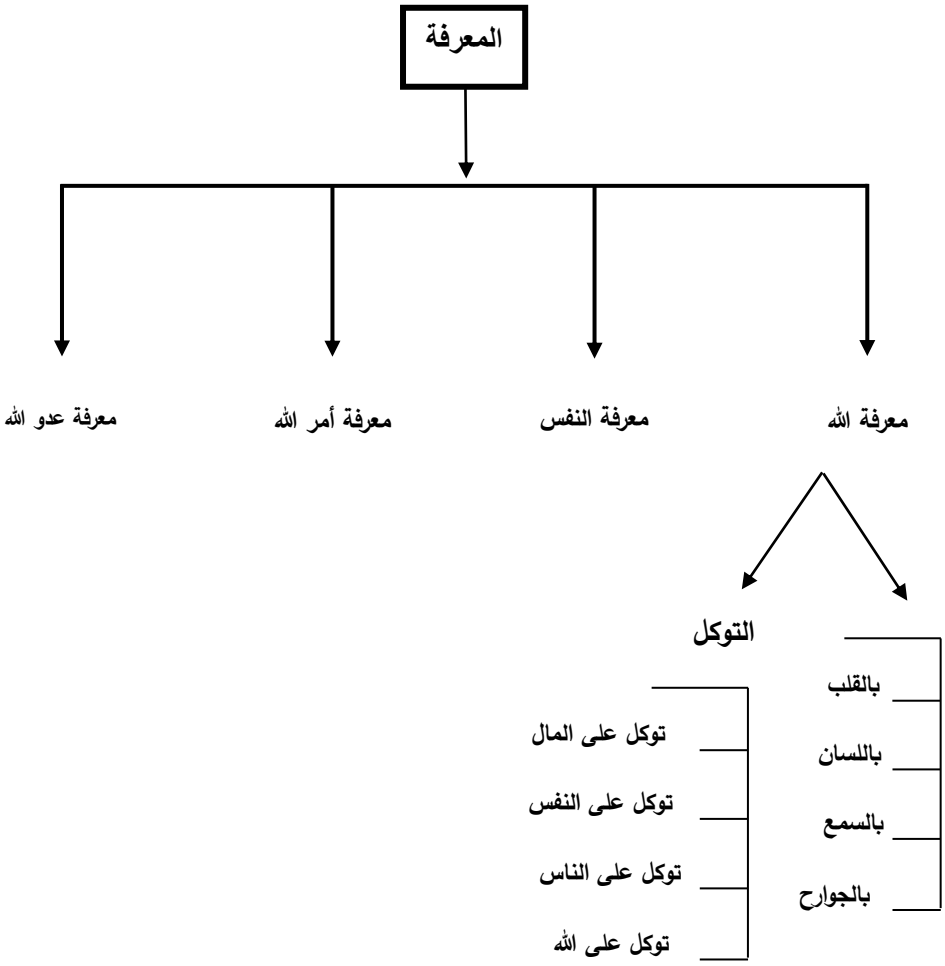

(ISSN : 2536 - 9555)

**4- رحلة الطريق من التوحيد إلى الرضا:**

يبدو أن شقيقًا البلخي يقدم للمرة الأولى ترتيب منظم يبين من خلاله وبطريقة واضحة كيفية الترتيب الداخلي للحركة الصوفية نحو الله، ويبدأ هذا الترتيب من التوحيد منتهيًا بالرضا حسب الشكل التالي. ولا ينبغي أن ننسى أنه قد قدم التوبة والمعرفة على هذا الترتيب.

**شكل (رقم 2)**

**يوضح: رحلة الطريق من التوحيد إلى الرضا عند شقيق البلخي**

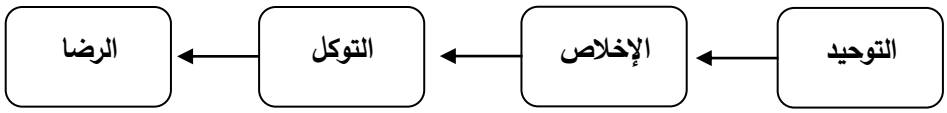


ولكن ما الدليل على أن هذا الترتيب لشقيق البلخي؟ إن الدليل الذي لا يضع أمامنا مجالاً للشك بأن هذا التنظيم والترتيب لشقيق البلخي هو أقواله نفسه، فقد ذكر هذا الترتيب فى أكثر من موضع. ويبدو أننا فى حاجة ماسة لسرد نصه الكامل.

قال شقيق البلخي: (ثلاثة أشياء ليس بد للعبد من القيام بهن، وإن أخذ بواحدة منهن فليس له بد من أن يأخذ الاثنتين لأنهن متشابهات.. **أولهن:** أن توحد الله بقلبك ولسانك وعملك، فإذا وحدته بقلبك أن لا إله غيره، ولا نافع ولا ضار غيره فإنه لابد لك من أن تنطق به فيرتفع إلى السماء، وليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره، ولا تبلغ عملك من كل حر وحر واحد لغيره إلا طمعا فيه أو حياء أو خوفا منه، فإذا خفته وطمعت فى غيره وهو مالك الأشياء ورازقها فقد اتخذت إلها غيره وأجللته وعظمته، لأنك استحييت منه وخفته وطمعت فيه، فاذهب ذلك عنك ما فى قلبك من توحيد الله وسلطانه وعظمته، فاعرف ذلك، فإذا صرت مخلصا بهذا القول، عاملا له أنه لا إله إلا هو، فليكن هو أوثق عندك من

الدينار والدرهم، والعم والخال، والأب والأم، ومن على ظهر الأرض، فإنك إن تكن على غير ذلك ينتقض عليك ضميرك وتوحيدك ومعرفتك إياه، فهاتان خصلتان ليس لك منهما بد، ويتبع بعضها بعضا **والثالثة** إذا كنت بهذه الحال فأقمت هذين الأمرين، التوحيد والإخلاص والتوكل عليه، فارض عنه ولا تسخط فى شيء يحزنك، من خوف أو جوع أو طمع أو رخاء أو شدة إياك والسخط، وليكن قلبك معه لا تزل عنه طرفة عين، فإنك إن أدخلت قلبك السخط عليه فإنك متهاون به فينتقض عليك توحيدك، فعليك بالأول التوحيد والإخلاص، فاعرف ذلك وافهم هذه الثلاث خصال تعزز بهن، وإياك أن تضيعهن)[42].

وللتأكد من أن شقيقًا البلخي كان يعني عن قصد ما جاء فى هذا النص نراه فى موضع آخر يقول: (أحفظ مني ثلاث خصال: توحد الله بقلبك ولسانك وشفتك، وأن تكون بالله أوثق مما فى يديك، وأن ترضى عن الله)[43].

وبهذا الترتيب نجد أنفسنا أمام مجموعة من التساؤلات، منها: هل هذا هو الترتيب المنظم الوحيد عند شقيق البلخي؟ أم أننا يمكن أن نجد عدة ترتيبات أخرى منظمة؟ وهل الرضا طبقا لهذا الترتيب هو نهاية الرحلة الروحية؟ أم أنه يعد نهاية مرحلة لتبدأ مرحلة أخرى؟ وإذا كان الرضا نهاية مرحلة لتبدأ مرحلة أخرى، فما هي معالم وأبعاد هذه المرحلة الجديدة؟ وما الفارق بينها وبين المرحلة السابقة عليها؟ ونعتقد أنه بإجابة هذه التساؤلات سيتضح موقف ورؤية شقيق البلخي لموضوع دراستنا. وقبل محاولة تقديم إجابة عن التساؤلات السابقة نتجه لتحليل بنية رحلته من التوحيد إلى الرضا.

**أ . التوحيد والإخلاص**: لا شك أن التوحيد أساس العقائد الإيمانية، ودعامة الدعوة الإسلامية التي عنها تتفرع بقية الأصول الاعتقادية الواجب الإيمان بها

[42] المرجع السابق، جـ8، ص63.

[43] المرجع السابق، جـ8، ص62.

(ISSN : 2536 - 9555)

على كل مسلم[44]. ويمكن أن نرصد فى تاريخ الإسلام تطور غير عادي لمفهوم التوحيد، فكثيرا ما نجد العديد من الكتابات عن "**توحيد الذات**" و"**توحيد الصفات**" و"**توحيد الأفعال**"، والعديد من مثل هذه المصطلحات الكلامية. أما حينما نتجه إلى الصوفية فقد نجد أيضا ما يوازي المصطلحات الكلامية السابقة مثل: "**توحيد الحق للحق**"، و"**توحيد الخلق للحق**"، و"**توحيد العامة**"، و"**التوحيد الذوقي**"، و"**توحيد الخاصة**"[45]..الخ. والجدير بالذكر أن شقيقًا البلخي لا يدخل نفسه ضمن هذه المجادلات الكلامية حول مفهوم التوحيد. إلا أنه فيما يبدو قد فرق بين التوحيد باللسان والتوحيد بالقلب[46]، ليس هذا فحسب بل يقوم بعمل ترابط وثيق بين مصطلح "**التوحيد**"، ومصطلح "**الإخلاص**"، وكأنه يريد أن يقول: إن الإخلاص علامة ودليل وإثبات وجود التوحيد. وكما ربط بشكل وثيق بين التوحيد والإخلاص، يربط بنفس الشكل بين الإخلاص والتوكل. فإذا صرت مخلصا بهذا القول، عاملا له أنه لا إله إلا هو فليكن هو أوثق عندك من الدينار والدرهم، والعم والخال، والأب والأم...[47].

---

[44] أبو العلا عفيفي، **التصوف الثورة الروحية فى الإسلام**، ص157.

[45] للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع المهم، انظر:

- الحبيب عياد، **الكلام فى التوحيد جذور المسألة وروافدها وتطور الجدل فيها بين أهم الفرق الإسلامية إلى القرن الخامس الهجري**، ص28 وما بعدها.
- للإطلاع على تميز بعض أقوال الصوفية فى التوحيد على غيرهم أنظر:

- Zakaria Bin Stapa, ***A Discussion on Tawhid: the viewpoint of the Sufis***, Hamdard Islamicus Journal, Vol. xiv, 1991, p. 53-66.
- R. Arnaldez, ***Ontologie et Mystique musulmane***, Travaux et Jours, Beyrouth, 1962, p.4.

[46] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص62.

[47] المرجع السابق، جـ8، ص63.

**ب . التوكل ودرجاته:** يصعب فهم موقف شقيق البلخي لصياغته لمفهوم التوكل إلا فى ضوء الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن التوكل. فقد استشهد شقيق البلخي بقوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [سورة المائدة، الآية:23]، وقوله: (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [سورة آل عمران، الآية:122]، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [سورة آل عمران، الآية:159]. وهكذا يصبح القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لرؤية شقيق البلخي فى التوكل. وتصح عبارة الباحث بولس نويا: **إن التجربة الصوفية عند شقيق البلخي وليدة تفكره فى القرآن الكريم**[48]. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على اعتبار الإسلام ممثلا فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية هو المصدر الأساسي للتصوف الإسلامي وليس الأمر كما ذهب بعض المستشرقين (من الأجيال الأولى: أي الذين عاشوا منذ بداية القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين) بقولهم بأن الإسلام ليس المصدر الأساسي للتصوف[49]، ولا يتسع المجال هنا للدخول فى تفاصيل هذا الموضوع.

---

[48] بولس نويا، **نصوص صوفية غير منشورة**، ص9.

[49] اعتبر الجيل الأول من المستشرقين، أي الذين عاشوا منذ القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين التصوف الإسلامي أجنبي المصدر، ورأوا أنه نشأ من مصادر أجنبية لا من داخل الإسلام، ويأتي قولهم هذا على أساس عدة أسباب من أهمها تأثرهم بفلسفة التاريخ للفيلسوف الألماني الشهير هيجل (G.W.F.Hegel) الذي توفى عام 1831م التي تقوم على نظرية واضحة بمركزية الحضارة الأوروبية كالمرحلة الأخيرة لمظاهر الروح المطلق فى التاريخ البشري. ومنهم: أوليرى (Delacy O'Leary)، براون (J. P. Brown)، جولدزيهر (I. Goldziher)، فون كريمر (A. Von Kremer)، دوزى (R. Dozy)، آسين بلاثيوس (Asin Palacios)، أوليرى ( D. O'Leary)، وتور اندرى (Tor Andrae)، وغيرهم. وقد اختلفوا فيما بينهم حول مصدر التصوف الإسلامي، فذهب البعض إلى المصدر الهندي، والبعض منهم إلى المصدر اليوناني، والبعض الآخر إلى المصدر المسيحي. إلا أنه بداية من المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون ( Louis Massignon, d. 1962) لم نعد نرى ذكر لمثل هذه الآراء بين المستشرقين، بل لقد أجمع

(ISSN : 2536 - 9555)

ويربط شقيق البلخي ربطًا تامًا بين التوكل والإيمان قائلا: من لم يتوكل على الله يصير خارجا من الإيمان[50].

وبعد ذلك يعرف التوكل قائلاً: التوكل أَنْ يَطمِئن قَلبُك بِمَوْعُودِ الله[51]. ويقسم التوكل عدة درجات هي: التوكل على المال، والتوكل على النفس، والتوكل على الناس– ***وهذا هو التوكل الزائف لينتقل إلى التوكل الحقيقي وهو***– والتوكل على الله.. وتفسير التوكل على المال؛ أن تقول: ما دام هذا المال فى يدي فلا أحتاج إلى أحد، وهذا يفسر أيضا التوكل على الناس، وتفسير التوكل على الله: أن تعرف أن الله تعالى خلقك وهو الذي ضمن رزقك وتكفل برزقك، ولم يحوجك[52].

إنها المرة الأولى التي نجد فيها لدى بعض زهاد القرن الثاني الهجري تقسيمًا صريحًا ومباشرًا مقصودًا لمصطلح من المصطلحات التي تدخل ضمن إطار رحلة المقامات والأحوال الصوفية. فهل فعل شقيق البلخي ذلك وهو مدرك المعني؟ أم جاء بمحض الصدفة؟ ويبدو لي أنه كان يدرك ذلك. حيث لم يكتف بتقسيم التوكل حسب الدرجات السابقة فقط، بل كما سبق وأن رأينا فى الصفحات السابقة ارتباط التوكل بالمعرفة من ناحية. وإدخال التوكل ضمن منظومة مكونه من: (التوحيد والإخلاص والتوكل والرضا) من ناحية أخرى[53].

---

المستشرقون التالون لماسينيون على أن المصدر الأول والأصلي للتصوف الإسلامي يرجع إلى منبع إسلامي وعلى رأسه القرآن الكريم... لمزيد من التفاصيل راجع: جوزيبي سكاتولين وأحمد حسن، **التجليات الروحية**، ص20–24.

[50] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص64.

[51] عبد الرحمن السلمي، **طبقات الصوفية**، ص63.

[52] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص61.

[53] راجع نصه الصريح فى الربط بين (التوحيد والإخلاص والتوكل، والرضا): الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص69. انظر أيضا: رينولد نيكلسون، **الصوفية فى الإسلام**، ص51–53.

**ج . الرضا بين التوكل والتوحيد:** ينتقل شقيق البلخي داخل العديد من نصوصه من التوكل إلى الرضا بشكل مباشر وصريح. ويفسر شقيق البلخي الرضا قائلا: فارض عنه ولا تسخط فى شيء يحزنك، من خوف أو جوع أو طمع أو رخاء، أو شدة، وليكن قلبك معه لا تزل عنه طرفة عين[54]. ليس هذا فحسب بل يربط أيضا بين الرضا والتوحيد، ولكن كيف ذلك؟ يرد علينا البلخي قائلا: فإنك إن أدخلت قلبك السخط عليه، فإنك متهاون به فينتقص عليك توحيده، فعليك بالأول التوحيد والإخلاص، فاعرف ذلك وافهم هذه الثلاث خصال (أي التوحيد والأخلاص، والتوكل، والرضا) [55]. صحيح أن ترتيبه يبدأ من التوحيد ثم التوكل ثم الرضا، إلا أن الوصول إلى الرضا يعني كمال التوحيد والتوكل.

ومن الملفت للنظر هنا أن شقيقًا البلخي كما نرى قد قدم التوكل على الرضا. وهنا يتشابه مع أبى نصر السراج الطوسي (ت: 378هـ/988م) الذي قدم أيضا التوكل على الرضا وذلك بقوله: التوكل يقتضي الرضا[56]. ليس هذا فحسب بل قال أيضا: الرضا يقتضي من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب، ومطالعة الغيوب، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال[57]. ولننتبه للعبارة الأخيرة لأنها قد تعني وجود مرحلة روحية جديدة بعد الوصول إلى الرضا، وربما سنجد نفس الشيء لدى شقيق البلخي فى الصفحات التالية.

ويتشابه شقيق البلخي هنا أيضا مع أبى طالب المكي (ت: 386هـ/996م) الذي يذكر فى باب التوكل: يزيد من توكل عليه هدى إلى هداه ويرفعه مقامًا فى

---

[54] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص63.

[55] الأصبهاني، **حلية الأولياء**، جـ8، ص63.

[56] السراج الطوسي، **كتاب اللمع**، ص79.

[57] المرجع السابق، ص81.

(ISSN : 2536 - 9555)

اليقين على تقواه... ويلقي عليه رضاه ومحبته[58]، كما يذكر فى موضع أخر: الرضا غاية الجزاء ونهاية العطاء[59].

ويختلف مع عبد الملك الخركوشي (ت:407هـ/1016م) الذي قدم الرضا على التوكل فى كتابه تهذيب الأسرار، ويحاول إرجاع ذلك لذي النون المصري (ت:246هـ/861م) حينما يذكر عبارته: المقامات لسبعة عشر؛ فأدناها الإجابة، وأعلاها صدق التوكل[60].

وبالعودة مرة أخرى إلى تشابه موقف شقيق البلخي مع السراج الطوسي وأبى طالب المكي فى تقديم التوكل على الرضا، فإنهم لا يتشابهون فى ذلك فحسب، بل قد يتشابهون فى شيء آخر وقد يختلفون فى تفاصيل نفس الشيء أيضا. بمعنى أنهم يتشابهون فى اعتبار مصطلح الرضا يأتي نهاية لمرحلة ما إلا أنه فى الوقت نفسه يعد تمهيدا لنشأة مرحلة أخرى جديدة وهى ما أطلق عليها شقيق البلخي اسم "**منازل أهل الصدق**"، في حين أطلق عليها السراج الطوسي "**أحوال أرباب القلوب**"[61]. ولكنهم فى الوقت نفسه قد يختلفون فى الترتيب الداخلي لهذه المرحلة الجديدة حسب الخبرة الروحية لكل منهم.

## رابعاً- منازل أهل الصدق (المقامات والأحوال) عند شقيق البلخي:

صنف شقيق البلخي رسالة أطلق عليها اسم "**منازل أهل الصدق**"[62]. ويعود الفضل فى اكتشاف وتحقيق ونشر هذه الرسالة إلى الباحث العراقي الأصل

---

[58] أبو طالب المكي، **قوت القلوب**، جـ2، ص76.

[59] المرجع السابق، جـ2، ص76.

[60] عبد الملك الخركوشي، **تهذيب الأسرار**، ص112.

[61] السراج الطوسي، **كتاب اللمع**، ص81.

[62] وردت تسميته "**منازل أهل الصدق**" فى كتاب آداب العبادات، ولا نعلم له إلا مخطوطة واحدة، وهى فى خزانة توبكابي، باستنبول تحت رقم 1762، وهي مجموعة تحتوي على عدة

الفرنسي النشأة والوفاة الأب Paul Nwyia بولس نويا (ت:1980م)[63]. وقد حدد شقيق البلخي بشكل صريح ومباشر فى هذه الرسالة منازل أهل الصدق، حين قال: إن المنازل التي يعمل فيها أهل الصدق أربع منازل: أولها الزهد– والثاني الخوف– والثالث الشوق إلى الجنة– والرابع المحبة[64].

والجدير بالذكر أن الرسالة المذكورة لم تتضمن كلمة صوفى أو تصوف، ولعل ذلك عائد إلى عدم شيوع هذا المصطلح فى ذلك الوقت المبكر[65]. كما أن هذه الرسالة لم تتضمن مصطلح مقام أو مصطلح حال، بل تضمنت مصطلحًا آخر هو "**منازل**".

وتأتي هذه الرسالة سابقة على كل من: أبى سليمان الداراني (ت:215هـ/830م) وذو النون المصري (ت:246هـ/861م). وفيها نجد موقف ورؤية شقيق البلخي (ت:194هـ/810م) حيث يقدم ترتيبًا منهجيًا ويبين بطريقة واضحة الترتيب الداخلي للحركة الروحية نحو الله.

---

رسائل صوفية والمخطوطة غير مؤرخة (ولكن واضح من نوع الخط والورق أن المخطوطة قديمة جدا). لمزيد من التفاصيل، انظر: بولس نويا، **نصوص صوفية غير منشورة**، ص11.

[63] بولس نويا (ت: 1980م) راهب عراقي يسوعي كان يكتب بالفرنسية والعربية. ويعد من أهم وأبرز الباحثين فى التصوف الإسلامي فى القرن الماضي، رغم أنه لم يأخذ الشهرة التي يستحقها، واقتصرت شهرته على بعض المتخصصين خاصة الغربيين. وقد اعترف الباحث بولس نويا للصوفية بأفضال عظيمة، إذ رأى أنهم أنشأوا بخبراتهم الذاتية لغة خاصة لهم، وهي لغة حية بمعان عميقة ذات صبغة ذاتية ملموسة، بعيدة عن البلاغة الشكلية السائدة لدى الكثير من الأدباء العرب. راجع:

- Paul Nwyia, ***Exegèse coranique***, p.23–24.

[64] بولس نويا، **نصوص صوفية غير منشورة**، ص17.

[65] محمد الراشد، **نظرية الحب**، ص77.

(ISSN : 2536 - 9555)

حيث يوضح فى نصه **(منازل أهل الصدق)** وبوضوح تام التقدم من مرحلة إلى أخرى وحال المؤمن فى كل مرحلة من المراحل. وفى كل مرحلة يميز بين أمرين **(الفعل)** أو ما يمكن أن نسميه المجهود البشري من ناحية، و**(الهبة الإلهية)** الواردة بعد **(الفعل)** المجهود البشري من ناحية أخرى. ويطلق على الأخير اسم **(النور)** كنور الزهد، ونور الخوف، ونور الشوق، ونور المحبة.

ولم يكتف شقيق البلخي فى هذه الرسالة بترتيب وتوضيح المنازل الأربع التي يعمل فيها أهل الصدق فقط، بل رتب وقسم أيضا أصناف أهل الصدق ثلاثة أقسام فقال: صنف منهم بمنزلة الزهد والخوف، لا يخرجون منها ولا يعرفون غيرهما. وصنف منهم فى منزل الشوق إلى الجنة لا يعرفون فوقها منزلة، ولا يخرجون منها. وصنف منهم قد قطعوا المنزلتين إلى الله جميعًا، فصاروا فى روح الله ورحمته وصارت قلوبهم معلقة بربهم يتلذذون بمناجاته إذا خلوا به[66]. وبتوضيح رؤية شقيق البلخي لهذه المنازل نتجه لتحليل بنية وخصائص كل منزلة من هذه المنازل.

**أولا– منزلة الزهد:** حيث يعتبره شقيق البلخي مبتدأ الدخول فى أدب النفس بقطع الشهوات من الطعام والشراب إلا على القوت الكافي، حتى يصير الجوع هو الشعار الأول لهذه المرحلة، وإذا سألنا ما الحكمة من الجوع هنا؟ فسنجد الإجابة واضحة فى هذه الرسالة: حتى ينشغل الإنسان فى هذه المرحلة بالجوع عن التطلع إلى الفضول والشهوات وغير ذلك من الصفات المذمومة، وينشغل بجوعه عن غيره. فالجوع هنا وسيلة وليس غاية. وينتقل بعد ذلك من الجوع إلى الصوم حتى يشجعه الصيام على التسبيح وقراءة القرآن مما يساعده على الترقي الروحي، فإذا علم الله منه صدق النية أخرج من قلبه حب الدنيا وأدخل مكانها **(نور الزهد)**

[66] بولس نويا، **نصوص صوفية غير منشورة**، ص21–22.

ويدخل هذا النور إلى القلب تدريجيا فيحل محل الظلمة بشكل تدريجي، فيدخل مكانها النور حتى لا يبق من الظلمة شيئًا فيتمكن نور الزهد من القلب بأكمله.

وينتج عن ذلك أن يبقى الإنسان وقتها فى الدنيا لا يطلبها مع الطالبين ولا ينافس فيها مع المنافسين لأنه يسعى إلى ما هو أعلى وأسمى من الدنيا. فإذا صار هكذا فإن شاء الله فليدم على ذلك حتى الممات وإن شاء الله فلينزل من ذلك منزلة الخوف من الزهد[67].

**ثانيا- منزلة الخوف:** ويأتي **(الفعل)** أو الجهد البشري فى هذه المنزلة بأن يقرن المرء الزهد بالخوف؛ لأن الزهد لا يكون إلا بالخوف من الله. فوقتها يتذكر الموت ويلزم نفسه الخشية والحذر من الله لأنه يراه. فيبقى على ذلك إلا أن يلقى الله فى قلبه نور الخوف، وبالطبع يزداد هذا النور فى القلب بشكل تدريجي من غير أن ينقص شيئًا من نور الزهد. فإن شاء الله أبقاه على ذلك حتى الممات وإن شاء نقله إلى منزلة أخرى وهى منزلة الشوق إلى الجنة[68].

**ثالثا- منزلة الشوق إلى الجنة:** ومبتدأ الدخول فى هذه المنزلة أن يتفكر الإنسان فى نعيم الجنة وما أعد الله فيها لساكنيها على حد تعبير شقيق البلخي. فيزيد فى نفسه الشوق إلى الجنة يوم بعد آخر، فيلقي الله فى قلبه **نور الشوق** إلى الجنة دون نقصان فى **نور الزهد ونور الخوف** من قلبه، فيزيد فى قلبه من نور على نور. فإن عمل على تصحيح نيته لله سبحانه وتعالى أكثر رزقه الله أكثر فنقله من ذلك إلى **المحبة**. أو أبقاه على ذلك حتى الممات[69].

**رابعا- منزلة المحبة:** يرى شقيق البلخي أنه لا يصل إلى هذه المنزلة كثيرٌ من الناس. فكثير من الناس قد اجتازوا منزلة الزهد والخوف والشوق إلى الجنة،

---

[67] المرجع السابق، ص21.

[68] المرجع السابق، ص21.

[69] المرجع السابق، ص22.

(ISSN : 2536 - 9555)

إلا أن قلة قليلة من هؤلاء هم الذين نزلوا **منزلة المحبة** لأنها فيما يرى أرفع المنازل وأشرفها وأبهاها. ويتطلب بداية الدخول فى هذه المنزلة من المرء أن يقوي قلبه عليها باليقين الصادق وأن يلهم قلبه حب ما أحب الله فى كل شيء إلا أن لا يصير شيء أحب إليه من الله ورضاه. فإن قوى الإنسان على ذلك نظر الله إليه وألقى فى قلبه **نور المحبة** من غير من أن ينقص من قلبه من **(نور الزهد، نور الخوف، نور الشوق إلى الجنة)**. إلى أن يقول البلخي صراحة: فكذلك نور المحبة لله أقوى الأنوار وأعلاها. وبالتالي تأتي نهاية الرحلة عند شقيق البلخي لا بالمحبة ولكن بما أسماه بـ "**نور المحبة**"[70].

**خاتمة**:

من أهم الملاحظات التي يمكن أن نلاحظها فى رسالة **(منازل أهل الصدق)** تلك العلاقة الجدلية المعقدة بين **(الفعل)** الجهد البشري و**(النور)** المنة الإلهية داخل المصطلح الواحد.

بمعنى أن كل مصطلح أو منزلة من هذه المنازل يوجد به شق يرتبط بالفعل الإنساني أسماه شقيق البلخي بـ "**الفعل**"، كما يوجد منة إلهية وهي ما أسماها البلخي "**النور**" ويأتي ذلك فى كل منزلة من منازل أهل الصدق.

ولا يتضح ذلك بشكل نظري فقط بل يتضح أكثر حينما يفرق بين "**الزهد**" و"**نور الزهد**"، "**الخوف**" و"**نور الخوف**"، "**الشوق إلى الجنة**" و"نور **الشوق إلى الجنة**"، "**المحبة**" و"**نور المحبة**"...

ليس هذا فحسب بل إن معنى "**الخوف**" يختلف تماما عن معنى "**نور الخوف**" على سبيل المثال. حيث إن "**نور الخوف**" يجعل المرء فى نهاية المنزلة أو المنزلة التالية فى حالة "**نسيان للخوف**".. وهكذا تأخذ المصطلحات فى هذه الرسالة

[70] المرجع السابق، ص22.

معاني متعددة فى غاية التشابك والتعقيد. فإن كل مصطلح من هذه المصطلحات يحتوي أيضا على ما أسماه صوفية القرنين الرابع والخامس بـ"**المقامات والأحوال**"، بمعنى أن ما أسماه البلخي بـ "**الفعل**" أو الجهد البشري يمكن أن نقابله بـ "**المقام**" على اعتبار أن المقامات مكاسب وأفعال. أما ما اسماه البلخي بـ "**النور**" المنة أو الهبة الإلهية، فيمكن أن نقابله بـ "**الأحوال**" على اعتبار أن الأحوال مواهب... ولنا أن نتذكر أن شقيقًا البلخي قد ربط كل مصطلح أو كل منزلة من منازل أهل الصدق بـ "**الفعل**" و"**النور**". كالخوف ونور الخوف[71].

والجدير بالذكر محاولة تحديد ما إذا كانت هناك علاقة ما بين الأنوار المختلفة التي ذكرها شقيق البلخي فى هذه الرسالة. فهل يمكن رصد وجود علاقة معينة بين هذه الأنوار؟ ونجد الإجابة فى نص هذه الرسالة حين يقول البلخي: فمثل نور الزهد والخوف فى القلب كمثل كوكب يُنظر إليه وهو يتلألأ. فبينما هو ينظر إليه، إذ طلع القمر، فيُطفأ نور الكوكب من غير أن يطفأ الكوكب. ولا الكوكب يبرح من مكانه. فكذلك نور الشوق يغلب نور الخوف والزهد، من غير أن ينقص من نورهما شيئًا. ومثل نور الشوق مع نور المحبة كمثل القمر الطالع. فبينما هو ينظر إليه، إذ طلعت الشمس، فأطفأت نوره، والقمر من مكانه لم يبرح، ولم ينقص من نوره شئ. فكذلك نور المحبة لله أقوى الأنوار وأعلاها على العبادة[72].

وكما نرى فإن نور كل منزلة تحتوي بداخلها على نور المنزلة السابقة، فلا ينقص منه شيئًا، بل كما عبر شقيق البلخي بالنص: كمثل القمر الطالع. فبينما هو ينظر إليه، إذ طلعت الشمس، فأطفأت نوره، والقمر من مكانه لم يبرح، ولم ينقص من نوره شئ.

---

[71] المرجع السابق، ص22.

[72] المرجع السابق، ص22.

(ISSN : 2536 - 9555)

وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على مدى الترتيب المتناغم والمتناسق بين أنوار هذه المنازل مما يعني أن شقيق البلخي كان على معرفة ودراية تامه بما يمكن أن نطلق عليه: مراحل الطريق سواء كانت **(فعل أو نور)**، **(مقامات أو أحوال)**، **(جهد بشري أو منة إلهية)**. فقد قدم فى رسالته عدة منازل، كما قدم عدة أنوار، وأوضح كيف يحتوي كل نور من هذه الأنوار على النور السابق عليه. ولعل هذا هو أقدم ترتيب واضح، منظم مقصود، يمكن أن نرصده فى تاريخ التصوف الإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن المنزلة الواحدة تتشابك عند شقيق البلخي لتجمع بداخلها ما سماه الصوفية اللاحقون **(المقامات والأحوال)** لأنه جمع بين الفعل البشري والمنة الإلهية فى آن واحد. وهذه فكرة في غاية الأهمية لأنها لم تكن منتشرة عند الصوفية المعاصرين لشقيق البلخي بصفة خاصة، ولم يكتب لها الانتشار عند أغلب الصوفية بصفة عامة.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولا- المصادر والمراجع العربية:


1. إبراهيم بسيونى ، ***نشأة التصوف الإسلامى***، دار المعارف، مصر، 1969.
2. ابن العماد الحنبلى، ***شذرات الذهب فى أخبار من ذهب***، مكتبة القدسى، القاهرة، بدون تاريخ.
3. ابن القيسرانى المقدسى، ***صفوة الصفوة***، تحقيق غادة المقدم، دار المنتخب العربى، 1995.
4. ابن القيم الجوزية، ***مدارج السالكين***، تحقيق محمد جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980.
5. ابن الملقن المصرى، ***طبقات الأولياء***، تحقيق نور الدين شريبه، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973.
6. ابن خلكان، ***وفيات الأعيان***، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.

7. ابن منظور، ***لسان العرب***، تحقيق أمين عبد الوهاب، دار إحياء التراث العربى، بيروت، 1999.
8. أبو الفداء ابن كثير، ***البداية والنهاية***، المطبعة السلفية، القاهرة، 1351هـ.
9. أبو الفرج الجوزى ، ***صفة الصفوة***، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989.
10. أبو الفرج الجوزى، ***المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم***، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
11. أبو الوفا التفتازانى ، ***مدخل إلى التصوف الإسلامى***، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979.
12. أبو بكر الكلاباذى، ***كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف***، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
13. أبو طالب المكى، ***قوت القلوب فى معاملة المحبوب***، تحقيق سعيد مكارم، دار صادر، بيروت، 1995.
14. أبو نصر السراج الطوسى، ***كتاب اللمع***، تحقيق عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.
15. أبو نعيم الأصبهانى، ***حلية الأولياء وطبقات الأصفياء***، دار الكتاب العربى، بيروت، 1980.
16. آنا مارى شيمل، ***الأبعاد الصوفية فى الإسلام وتاريخ التصوف***، ترجمة محمد إسماعيل السيد، دار الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2006.
17. بولس نويا ، ***نصوص صوفية غير منشورة***، دار المشرق، بيروت، 1986.
18. جوزيبى سكاتولين وأحمد حسن، ***التجليات الروحية فى الإسلام نصوص صوفية عبر التاريخ***، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008.
19. خير الدين الزركلى، ***الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء***، دار العلم للملايين ، بيروت، 1995.
20. رينولد نيكلسون، ***فى التصوف الإسلامى وتاريخه***، ترجمة أبو العلا عفيفى، القاهرة، 1974.

(ISSN : 2536 - 9555)

21. عبد الرءوف المناوى، ***الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية***، تحقيق عبد الحميد صالح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

22. عبد الرحمن الجامى، ***نفحات الأنس من حضرات القدس***، مطبعة دمشق، سوريا، 1968.

23. عبد الرحمن السلمى، ***طبقات الصوفية***، تحقيق نور الدين شريبه، مكتبة الخانجى، القاهرة، 1986.

24. عبد الرحمن بدوى ، ***تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى***، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975.

25. عبد الكريم القشيرى، ***الرسالة القشيرية***، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، بدون تاريخ.

26. عبد الملك الخركوشى، ***تهذيب الأسرار***، تحقيق بسام بارود، المجمع الثقافى، أبو ظبى، الإمارات، 1999.

27. لويس ماسنيون ، مصطفى عبد الرازق، ***الإسلام والتصوف***، لجنة دائرة المعارف الإسلامية مطابع دار الشعب، القاهرة، 1979.

28. محمد الراشد، ***نظرية الحب والاتحاد فى التصوف الإسلامى***، دار الأوائل، دمشق، 2006.

29. محمد بن شاكر الكتبي، ***فوات الوفيات***، تحقيق على محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

30. يوحنا صادر، ***سير المتصوفين المسلمين فى جبل لبنان***، دار صادر، بيروت، 2004.

## ثانياً- المراجع الأجنبية:

31. Knysh, Alexander, ***Islamic Mysticism - A Short History***, Leiden: Brill, 2000.

32. Louis Massignon**, *Essai sur les origines du lexique téchnique de la mystique musulmane***, Paris, Cerf, 1999 (1ed. Geuthner, 1922; Vrin, 1954).

33. Michael Sells, ***Early Islamic Mysticism***, Paulist Press, New York, 1996.

34. Nicholson, Reynold Alleyne, ***Studies in Islamic Mysticism***, Cambridge: University Press. Cambridge, 1989 (1ed. 1921).

35. Paul Nwyia, ***Trois oeuvres inedites de Mystiques musulmans, Saqiq al-Balhi, Ibn Ata, Niffari***, Dar EL-Machreq, Beyrouth, Liban, 1986.

36. R. Arnaldez, ***Ontologie et Mystique musulmane***, Travaux et Jours, Beyrouth, 1962.

37. Radtke, B, ***Theologen und Mystiker in Hurasan und Transoxanien***, in: ZDMG, vol.136/1 (1986).

38. Reinert, B, ***Die Lehre vom Tawakkul in der klassischen Sufik***, Berlin, 1968.

39. Schimmel, Annemarie, ***Mystical Dimensions of Islam***, Chapel Hill (North Carolina): The University of North Carolina, 1975.

40. Zakaria Bin Stapa, ***A Discussion on Tawhid: the viewpoint of the Sufis***, Hamdard Islamicus Journal, Vol. xiv, 1991.